الفصل الثالث

التفسير والتأويل

١ - علم التفسير ومناهجه .
٢ - التحريف والتأويل .
٣ - الإسرائيليات .
٤ - استنباط الأحكام وأهمية الحديث .

تفسير القرآن الكريم

عندما كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ بواسطة الوحى الإلهى - كان العرب يفهمون مباشرة ، نظراً لفصاحتهم وأنه نزل بلسانهم ، وكانوا إذا اشتبه عليهم شىء يسألون عنه الرسول فيجيهم بما يعلم ، أو يتريث حتى ينزل الوحى ببيان المقصود ، ولكنهم لم يكونوا يسألون إلا عما يلزمهم فقط - لسبب أن رسول الله نهاهم عن كثرة السؤال والاختلاف على القرآن كما وقع الاختلاف على الكتب السماوية السابقة - قال تعالى : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُواْ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (٢) .

ولهذا بقى مقدار من القرآن الكريم لم يُعرف تفسيره فى العصر الأول ، وعندما انتشر الإسلام فى بلاد غير عربية دعت الحاجة إلى تفسير القرآن وتوضيح أسراره لغير العرب بل وللعرب أنفسهم .

وقد ورثنا من الأقدمين كثيراً من كتب التفاسير ، منها ما هو مطوّل يقع فى ٣٠ مجلداً أو يزيد ، ومنها المختصر الذى يمكنك أن تضعه فى جيبك .

كما أن منها ما يهتم بالفقه والأحكام . ومنها ما يهتم باللُّغة والقواعد ، ومنها ما يهتم بالسيِّر والتواريخ وأسباب النزول .

ومع ما فى تلك التفاسير من حشو واستطراد وآراء شخصية ومعلومات غير دقيقة من العلوم التى كانت تسود فى تلك الأزمنة ، فإنها فى الجملة كبيرة القيمة ، عظيمة الأهمية فى فهم معانى القرآن .

* * *

(١) الجاثية : ١٧ (٢) البقرة : ١٠٨

١ - مناهج التفسير

وتختلف آراء الناس فى تفسير القرآن الكريم ، فمنهم مَن لا يعتمد على كلام القدماء (السَلَف) ويفسر لنفسه ، غير متقيد بشىء ، وهذا أمر خطير لقوله عليه الصلاة والسلام : « مَن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

ومن الناس مَن يقرأ كتاب اللّه تعالى بدون أية محاولة لفهم المعنى - اكتفاءً بما يرجو من الثواب - وهذا أيضاً غير صواب ، لأن اللّه تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ (١) ، وعاب على أقوام لا يتدبرونه ولا يلتفتون لمعرفة أسراره ومعانيه بجهودهم فقال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (٤) .

والمنهج الذى نراه صحيحاً فى فهم الكتاب العزيز هو الآتى :

أولاً : أن تفهم معانى المفردات اللُّغوية التى تصعب عليك . (وتوجد مختصرات كثيرة فى معانى كلمات القرآن ومفرداته فقط) .

ثانياً : أن تقرأ تفسيراً - موثوقاً به - أو أكثر من تفسير واحد لتتعرف بوجه عام هذا العلم وما يتصل به من علوم كأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والكناية والمجاز والتشبيهات ونحوها من علوم البلاغة العربية والبيان . (مع ملاحظة عدم الاستسلام لما ورد فى التفاسير من الغرائب والإسرائيليات) .

---

(١) القمر : ١٧
(٢) محمد : ٢٤
(٣) النساء : ٨٢
(٤) الفرقان : ٧٣

ثالثاً : أن تفتح قلبك لفهم القرآن وتدبره فى حدود معانى اللُّغة العربية دون تأويل ولا تعطيل [1] ، فالقلب المؤمن هو خير مُفَسِّر للقرآن الكريم .

وليكن معلوماً أن هذا الكتاب معجز بألفاظه ومعانيه فهو يحتمل المعانى الكثيرة ولا يزال بكراً إلى يوم القيامة لا تنقضى عجائبه ولا تُحصر معانيه .

أما الذى لا يجوز للمسلم فعله - فهو أن يتعرض للتأليف أو للإفتاء فيما لا يعلم على وجه اليقين ، خصوصاً فى هذا العلم ، لأن الأمر خطير جداً . وكان كثير من الصحابة ومنهم أبو بكر رضى اللّه عنه يمتنع عن كثير من أمور التفسير ويقول : « أىُّ سماء تظلنى وأىُّ أرض تقلنى إذا قلتُ فى القرآن على غير مراد اللّه تعالى » .

وبهذه الطريقة وفى هذه الحدود يمكن أن يجد المسلم فى الكتاب المجيد حلاوة وعلماً - وأن يجد حلاً للمشاكل ، ونوراً لكل مظلمة وهدى لكل معضلة . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ [2] .

* * *

٢ - التحريف والتأويل

يأتى التأويل بمعنى التفسير كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [3] ويأتى التأويل بمعنى الميل بالمعنى إلى هوى معين - كما يأتى بمعنى التحريف وإلباس الباطل ثوب الحق - وهو المقصود بيانه فى هذا الموضع لتحذير المسلمين من تصديق مثل ذلك أو الوقوع فيه .

● وقد عُرِفَتْ بعض التفاسير بالميل عن التفسير الصحيح إلى مثل هذه الاتجاهات منها : تفاسير المعتزلة الذين لهم آراء معينة ومذهب معروف فى قضية « خلق القرآن » - وخلق أفعال العباد ، وحرية الإرادة ، وإنكار السحر .

---

(١) التأويل : هو تفسير الآيات بأكثر مما يُفهم منها أو صرفها عن معناها الصحيح إلى شىء آخر ، والتعطيل هو إلغاء المعنى المقصود واستبعاده مع شدة وضوحه .

(٢) النساء : ١٧٤ (٣) آل عمران : ٧

فيقول الزمخشرى عند تفسير سورة الفلق : ﴿ النَفَّاثَات ﴾ النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً وينفثن فيها ولا تأثير لذلك إلا إذا كان هناك إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه - فينسبه إلى الرعاع والحشوية (يريد بهم أهل السُنَّة والجماعة) لكن الثابتين بالقول الثابت لا يلتفتون لذلك .

وهذا الكلام فيه تعسف ومحاولة للخروج بالآيات عن معناها الواضح المستقيم .

● ومن ذلك تفاسير بعض فِرق الشيعة - فإنهم بنوا مذهبهم على نظريات معينة منها :

١ - أن القرآن له ظاهر وباطن ، وأن علم الظاهر والباطن عند أئمتهم فقط لا يمكن أن يُعرف إلا من طريقهم .

٢ - أن القرآن وارد كله أو معظمه فى أئمتهم ومواليهم وفى أعدائهم ومخالفيهم ، فهم يلوون أعناق المعانى لتتمشى مع هذه النظرية .

٣ - أن القرآن حُرِّفَ وبُدِّلَ عما كان عليه زمن النبى - وهم بذلك قد أعطوا حجة خطيرة يستشهد بها المستشرقون وأعداء الإسلام ، وهم فى سبيل ذلك تأولوا القرآن ليتفق مع آرائهم ، ولما وجدوا الأحاديث الصحيحة لا توافقهم عمدوا للطعن فى الأحاديث ورواتها من الصحابة وطعنوا عليهم ووضعوا أحاديث كثيرة تؤيد مذهبهم ، وإليك بعض نماذج من تأويلهم لمعانى القرآن :

١ - فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (١) يفسرون « بَدِّلْهُ » أى بَدِّلْ « علياً » ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقاً فى شأن خلافته وولايته .

٢ - وفى قول الله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ﴾ (٢) يقولون : فى هذا إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل مَن كان قبلها فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء .

---

(١) يونس : ١٥ (٢) الانشقاق : ١٩

٣ - فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) أى حافظون له عند الأئمة .

٤ - فى قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ .. ﴾ (٢) الآيات : قالوا : هو علىّ ، وفاطمة ، والحسين - ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (٢) قالوا : هو علم أهل البيت .

● وهناك تفاسير إلحادية مثل كتاب « الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن » تقوم على إنكار معظم ما جاء به القرآن الكريم - ففيها إنكار للمعجزات جملة ، وإلغاء لبعض الأحكام الشرعية من أساسها ، وتكذيب لصريح القرآن عن طريق سوء التأويل - لكن الأزهر أفتى بضلاله ، وصودر من السوق.

ومن أمثلة ما ورد فى هذا التفسير :

١ - فى الآيات الصريحة بإقامة الحدود كقوله : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٣) يقول : إن الأمر كان للإباحة لا للوجوب ، كقوله تعالى : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٤) وكذلك الشأن فى حد السرقة .

٢ - كان ينكر وجود الشياطين وينكر وجود الجن ويقول : إنهم قبيلة من العرب .

٣ - وكان يجيز مخالفة الرسول إن كان ذلك للمصلحة العامة ففى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) قال : إن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره ، وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع منها ، بل هى من حكمة الشورى .

---

(١) الحجر : ٩ (٢) النور : ٣٥ (٣) النور : ٢
(٤) الأعراف : ٣١ (٥) النور : ٦٣

٤ - وكان يتأول فلق البحر لموسى والعصا - وغيرها من المعجزات بطريقة الاحتيال والهروب من معانى الألفاظ ، ثم يقول فى النهاية : « وقد كانت كل آياتهم حججاً وبراهين من سيرتهم وأنهم لا يأتون بغير المعقول ، ولا بما يُبدِّل سُنَّة اللّه ونظامه فى الكون » .

● وهناك التفاسير الإشارية الصوفية : ومعلوم أن التصوف يتفق مع التشيع فى عدة مسائل كالغلو فى الأئمة وآل البيت - ومسائل الشفاعة والتوسل ، ومسائل الظاهر والباطن واعتزال شئون الدنيا وعدم التعاون مع السلطة أياً كانت (أى فصل الدين عن السياسة) وأمور أخرى ليس هذا مجالها .

وفى هذه التفاسير يجازف أصحابها بآراء غريبة شاذة ، وأحياناً ينسبونها إلى صحابى كابن عباس ، وأحياناً يحلّلونها على ضوء عقائدهم الباطنية تحليلاً ما .

في تفسير سهل التسترى عند الكلام على ﴿ بِسْمِ اللَّه ﴾ قال : « الباء بهاء اللّه ، والسين سناء اللّه ، والميم مجد اللّه عز وجل . واللّه هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها ، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر ، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس) .

وعند قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴾ يقول : الألف : اللّه . واللام : جبريل ، والميم : محمد ﷺ ، وأن اللّه أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام . وقد علّق بعض الظرفاء على هذا الكلام بقوله : « جميل جداً - لقد اقتربنا إذن من التثليث » .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى فى تفسير ﴿ الٓمٓ ﴾ : الألف ألف الوحدانية ، واللام لام اللُّطف . والميم ميم المُلك : معناه مَن وجدنى على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفتُ له فأخرجته من رق العبودية إلى الملأ الأعلى، وهو الاتصال بمالك المُلك .

ومعلوم أن اللّه تعالى بائن عن خلقه متعال عليهم لا يتصل بأحد منهم ولا يندمج فى شىء من الخلائق ، والكل عباده وأرقاؤه ، لا يخرج أحد منهم عن هذه العبودية ، ويقول ابن عطاء اللّه السكندرى عند الكلام على قوله تعالى :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (١)
يقول : « القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ ، وأخرجنا منها حباً بالمعرفة الصافية تضيء أنوارها على الظاهر والباطن » .

ويقول محيى الدين بن عربى في تفسير الفاتحة : « فإذا وقع الجدار وانهدم الصور وامتزجت الأنهار والتقى البحران وعُدِمَ البرزخ ، صار العذاب نعيماً ، وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عقاب إلا نعيم وأمان » - يعنى : صار موقف الآخرة فوضى وثورة عامة لصالح المجاذيب .

ومن العجيب أن يُعَلِّق الآلوسى على هذا الكلام العجيب بقوله : « هذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافى ما وردت به الآيات القواطع » وقد علّق التفتازانى على آراء بعض الصوفية بقوله : « والنصوص على ظواهرها ، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد » .

وأحب أن أُنَبِّه إلى الفرق الكبير بين القاضى أبى بكر محمد بن العربى الفقيه الأشبيلى الأندلسى المالكى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وهو صاحب كتاب « أحكام القرآن » ومن أفاضل علماء أهل السُنَّة ، وبين أبى بكر محيى الدين بن عربى (بدون أداة التعريف) ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ وهو شيخ الصوفية فى وقته وكان يؤمن بوحدة الوجود ويدعو لها واتهمه خصومه بالكفر والزندقة لأنه دعا أيضاً إلى وحدة الأديان سواء منها السماوى والأرضى ، وقد ألّف نحو ١٥٠ كتاباً منها « الفتوحات المكية » ، واهتم به المستشرقون اهتماماً كبيراً .

* * *

ومن ذلك تفاسير الفلاسفة : وقد ظهرت فى العصر العباسى ، وقد شجع حكام ذلك العصر على ترجمة كتب الفرس واليونان إلى العربية فرفضها غالب المسلمين وأعجب بها بعضهم - وقد حاول هؤلاء إخضاع النصوص القرآنية إلى موافقة النظريات الفلسفية .

---

(١) يس : ٣٣

ففى كتاب « فصوص الحكم » للفارابى يقول عند قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ [1] : « هو المعشوق الأول وهو آخر كل غاية ، أول فى الفكرة ، وآخر فى الحصول - وهو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه ولا يوجد زمان متأخر عن الحق » .

ويشرح « الظاهر والباطن » فيقول : « لا وجود أكمل من وجوده ، فلا خفاء به من نقص الوجود ، فهو فى ذاته ظاهر ، ولشدة ظهوره باطن ، وبه يظهر كل ظاهر ، كالشمس تظهر كل خفى ، وتستبطن لا عن خفاء » [2] .

والواقع أنه فى هذا كله يريد أن يؤكد نظرية « أفلوطين اليونانى » فى القول بأن العالَم قديم وليس بحادث .

ويفسر « إخوان الصفا » [3] الملائكة بأنهم كواكب الأفلاك .

وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [4] يعنى أرواح بنى آدم فهى تصعد إلى ملكوت السماء بعد مفارقة الجسد ، وتعيش هناك مغتبطة متلذذة ، وتدخل فوراً فى زمرة الملائكة .

ويفسرون كل شىء تفسيراً باطنياً ، فالشياطين عندهم ليست إلا النفوس الشريرة ، ويقولون : إن الجنة هى جنة الدنيا ونعيمها فقط .

أما ابن سينا فهو يرى أن القرآن ما هو إلا رموز تدق عن أفهام العامة ويقول : « إن المشترط على النبى أن يكون كلامه رمزاً وألفاظه إيماء ، وكما يذكر أفلاطون فى كتاب النواميس : إن مَن لم يقف على معانى رموز الرسل لم ينل ملكوت السموات » .

---

(١) الحديد : ٣

(٢) هذا كلام حاصله تلاعب بالألفاظ يجعل الرأس يدور .

(٣) إخوان الصفا هم من الدروز الباطنية .

(٤) فاطر : ١٠ .

ويُفَسِّر الجنة والنار والصراط تفسيراً فلسفياً بعيداً عن المأثور فهو يُقَسِّم العوالِم إلى : عالَم حسى ، وعالَم خيالى ، وعالَم عقلى ، والعالَم العقلى هو الجنة ، والخيالى هو النار ، والحسى هو عالَم القبور .

وواضح فى كل هذا الخلط أنه قيَّد نفسه بفلسفة أفلاطون [1] .

* * *

بقى أن نذكر التفاسير الفقهية - وأمرها يسير ، لأنها ترتبط ببيان أحكام الشريعة ، إنما يميل كل مفسر لما يؤيد وجهة نظره فى الفقه - ومعلوم أن الفقهاء متفقون فى أصول الدين ، ولم يقع الاختلاف إلا فى الفروع . ولن نخوض فيها حرصاً على الإيجاز .

* * *

هذه فكرة موجزة عن التفسير واتجاهاته نقلنا الكثير منها عن كتاب « التفسير والمفسرون » للشيخ محمد حسين الذهبي وغيره من الكتب الجيدة .

ونود أن ننبه القارىء الكريم إلى مزالق المفسرين الذين يمكن للمسلم المستنير أن يراهم اليوم وغداً يحاولون استغلال ثراء اللُّغة العربية وضعف إدراك جماعة من الناس ، فيميلون بمعانى القرآن إلى ما يؤيد نزعاتهم التى يعيشون بها .. وصدق اللّه إذ يقول : ﴿ هُوَ الَّذى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [2] .

* * *

(١) لا يخفى أن هذه النظريات المنحرفة سواء فى الفلسفة أو التصوف أو الباطنية لها أتباع من الكتّاب المعاصرين ينفثونها بين الناس من حين لآخر .

(٢) آل عمران : ٧

٣ - الإسرائيليات

وأما الإسرائيليات فهى الحكايات التى أوردها بعض المفسرين تعليقاً على بعض الآيات ، ولكنها لا تستند إلى أصل معتبر وفى نفس الوقت تتصل بنسب إلى بعض ما ورد فى كتب اليهود أو إلى آرائهم الخاصة وثقافتهم المتداولة عبر القرون .

وقد استند بعضهم إلى حديث منسوب للنبى ﷺ يقول : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل ، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » - لكن هذه الإسرائيليات التى نقرؤها من خلال كتب التفسير صارت غير مقبولة مع تقدم المعرفة ، وغير لائقة بأن يتداولها القرَّاء والعلماء لما تنطوى عليه من خرافة لا يقبلها العقل ، أو من اتهام للأنبياء والصدِّيقين بما لا يصح أن يوجَّه إليهم ، ومن ذلك ما أورده الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف » لسورة (ص) عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١) يقول : « كان أهل زمان داوود يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها ، واتفق أن عين سيدنا داود وقعت على امرأة رجل يقال له « أُوريا » فأحبها فسأله أن ينزل له عنها فاستحيا منه الرجل ونزل عنها فتزوجها داوود بالإضافة إلى نسائه التسعة والتسعين وهى أم سليمان » .

والصحيح غير ذلك فالنعجة المقصودة فى القرآن كانت نعجة ، وليست امرأة .

ومن ذلك ما رواه بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٢) يقول : « فُتِنَ سليمان بعد ما مَلَكَ عشرين سنة وكانت فتنته أن وُلِدَ له ابن فقالت الشياطين : إن عاش لم ننفك من السُخْرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله - فعلم سليمان فكان يطعمه (يغذوه) فى السحاب . فما راعه إلا أن أُلقِيَ على كرسيه ميتاً .

---

(١) سورة ص : ٢٣

(٢) سورة ص : ٣٤

وكذلك ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وأنه جعل لامرأته تمثالاً لأبيها فى قصره حتى لا تحزن .

وهذا كله لا يتفق مع رِفعة الأنبياء عليهم صلوات اللّه أجمعين . وعفتهم وأمانتهم .

وقد تنبه بعض المفسرين إلى خطر هذه الإسرائيليات ، فكان يوردها ثم يُعَلِّق بقوله : « وهذا من الإسرائيليات » . أو بقوله : « وهذا لا يصح » ومن هؤلاء ابن كثير الدمشقى ، وابن جرير الطبرى ، وغيرهم .

جاء فى ص ٤١٩ من تفسير ابن كثير (طبعة دار الأندلس ببيروت) الجزء الرابع : قال ابن لهيعة : حدثنى سالم بن غيلان عن سعيد بن أبى هلال أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار : « أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا » ؟ فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك فإن اللّه قال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ (١) ، والذى أنكره معاوية على كعب هو الصواب ، فقد كان معاوية يقول عن كعب : « إن كنا لنبلو عليه الكذب ، لا أنه يتعمد نقل ما ليس فى صحفه ، ولكن الشأن فى صحفه أنها من الإسرائيليات التى غالبها مبدّل محرّف مختلق ، ولا حاجة لنا مع خبر اللّه تعالى ورسوله إلى شىء منها بالكلية ، فإنه دخل على الناس منها شر كثير وفساد عريض » .

ومعلوم أن كعب الأحبار كان من علماء بنى إسرائيل ثم أسلم .

* * *

٤ - استنباط الأحكام

القرآن الكريم هو مصدر جميع الأحكام عند المسلمين - وتفسره السُنَّة المطهرة أو تُفَصِّل ما أجمله - وتوجد الأحكام الشرعية فى شروح القرآن وشروح كتب الحديث - وقد وُضِعَتْ كتب خاصة باسم « أحكام القرآن » كما وُجِدَتْ كتب

(١) الكهف : ٨٤

الفقه المعتمدة وهى استخلاص واستنباط للأحكام من كل ما تقدم بعد تحقيق ومقارنات شتّى ، يدخل فيها علم السيرة ، وعلم الرواية والدراية ، وأحوال الصحابة ، والقياس وغيره .

وسنورد فيما يلى بعض النماذج لاستنباط الأحكام :

فى الجزء الأول من « أحكام القرآن » لأبى بكر محمد بن العربى (من ص ٨٩-٩٦) عند قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ - إلى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [1] قال : فيها تسع عشرة مسألة : الأولى : فى سبب نزولها ، الثانية : فى الرَّفَثْ ، الثالثة : فى قوله : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ﴾ ، الرابعة : فى قوله : ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، الخامسة فى قوله : ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ ، السادسة : فى قوله : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ ﴾ ، السابعة : فى قوله : ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

وفيه ثلاثة أقوال : الأول : ما كتب الله لكم من الحلال .

الثانى : ما كتب الله لكم من الولد والذُّرية .

الثالث : ليلة القدر .

فالقول الأول : عام - يشهد له حديث قيس .

والقول الثانى : يشهد له حديث عمر بن الخطاب .

والثالث : عام - فى الثواب والأجر .

المسألة الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ ... وهكذا يمضى يسرد الأحكام .

وفى (ص ٣٠٩ - ٣١٤) من نفس الكتاب فى تفسير آية واحدة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ

(١) البقرة : ١٨٧

النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (١) . فيها اثنتا عشرة مسألة .

وقد أورد ابن العربى هذه المسائل بأسانيدها من قول النبى ﷺ وفعل الصحابة وتفسير القرآن بالقرآن ومن الشواهد العملية فى الصدر الأول ، مما يطول تفصيله - وأحياناً تتفرع به المسألة الواحدة إلى عدة وجوه أو أقوال ، فمثلاً فى المسألة الثانية عشرة فى قوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ قال : اختلف الناس فى تأويله على ثلاثة أقوال :

الأول - ألا يكثر عيالكم - قاله الشافعى - وهذا يدل على أن نفقة المرأة على الزوج .

الثانى - ألا تضلوا - قاله مجاهد .

الثالث - ألا تميلوا - قاله ابن عباس وغيره .

وقد قال علماؤنا : فيه سبعة معان .. ثم أورد المعانى السبعة مُفصَّلة فى عدة صفحات - شرحاً للفقرة الثانية عشرة من آية واحدة من كتاب اللّه تعالى .

والذى نريده هو بيان أهمية ما تنطوى عليه آيات الكتاب الكريم من كنوز وثروة علمية لا نهاية لها - وهى كفيلة بتحقيق السعادة الدنيوية لما يختلف فيه الناس جميعاً - فضلاً عن ثواب الآخرة .

ولكن جهوداً عالَمية جبارة بُذلَت للحيلولة بين المسلمين وبين الانتفاع بهذه الكنوز ، ذلك لأنهم : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

ويكاد علم التفسير بالمأثور أن يكون فرعاً من فروع علم الحديث الشريف - ذلك لأن المفسر يُقَيِّد نفسه بما ورد بسند صحيح عن رسول اللّه ﷺ - وهو أعلم الناس بما أُنْزِلَ إليه - وأنه عليه الصلاة والسلام كان يتوقف عما يُسْئَل فيه من

---

(١) النساء : ٣ (٢) الصف : ٨

معانى الكتاب العزيز حتى ينزل عليه جبريل - أمين الوحى - مُعَلِّماً ومُبَلِّغاً عن اللّه عز وجل .

فأنت تقرأ مثلاً - فى تفسير ابن كثير عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (١) :

« قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن عبد اللّه بن عبيد بن عقيل ، حدثنا سهل بن حماد أبو غياث ، حدثنا جرير بن أيوب عن أبى إسحاق عن عمرو ابن ميمون عن عبد اللّه عن النبى ﷺ فى قول اللّه عز وجل : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ قال : « أرض بيضاء لم يُسفك عليها دم ولم تُعمل عليها خطيئة » ثم قال - أى ابن جرير الطبرى راوى الحديث - : لا نعلم مَن رفعه إلا جرير بن أيوب وليس بالقوى ، أى أن هذه الرواية كلها ليست مؤكدة بالنظر إلى أنه لم يذكرها أحد من الرواة إلا جرير بن أيوب » .

وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ (٢) أورد المفسر قول الحافظ أبى بكر البزار قال : حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب ابن إبراهيم - واللّفظ له - قالا : حدثنا أبو نميلة ، حدثنا الزبير بن جنادة عن عبد اللّه بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لما كان ليلة أُسْرِىَ بى - قال - : فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس - قال - : فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق » ثم قال البزار : لا نعلم أحداً رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نميلة ، ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة ، وقد رواه الترمذى وقال : غريب ، أى لا نصدقه لغرابته ، والغريب فى علم الحديث : ما رواه راوٍ واحد منفرداً - أو انفرد شخص واحد بزيادة أُضيفت إلى متنه أو إسناده .

مثال آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى عن صالح عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة : سمعت جابر بن عبد اللّه يُحَدِّث أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « لما كذَّبتنى قريش حين أُسْرِىَ بى إلى بيت المقدس ، قمت فى

---

(١) إبراهيم : ٤٨ (٢) الإسراء : ١

الحِجْرِ فجلَّى اللّه لى بيت المقدس فطفقتُ أخبرهم عن آياته (أى علاماته) وأنا أنظر إليه » أخرجاه (أى البخارى ومسلم) فى الصحيحين من عدة طرق عن الزهرى - أى أنه صحيح .

نعرف من ذلك أهمية الحديث الشريف الصحيح فى فهم الآيات الكريمة ، والظروف التى نزلت فيها ، ومن ثَمَّ ندرك معاناها - وهذا لا يمنع من أن نفتح قلوبنا لفهم ما لم يرد فيه بيان من تفسير باقى الآيات (كما قدمنا فى الكلام على مناهج التفسير) .

ولكن الذى ينكره كل مسلم عاقل هو إهمال التخصص فى مثل هذا الأمر العظيم (وهو بيان مراد اللّه تعالى من كلامه العزيز) .

فيقدم أديب أو طبيب أو مهندس على إخراج تفسير من تصوراته الشخصية دون أن يكون له عهد بعلوم الدين التى تؤهل لمثل هذا العمل الخطير والتى تستنفد فيها أعمار العلماء العاملين المختصين .

* * *